

الإتجاه الأدبي في تفسير القرآن الكريم في العصر الحديث

أ. د . محمد ضياء الدين خليل إبراهيم

كلية الإمام الأعظم الجامعة

The literary trend in explanation
of the Holly Quran at modern time

Prepared by

Prof. Dr. Mohammed Dhiyaa Aldin Khalil Ibraheem

University College of Imam Al-Adhem

Mohammad_80d@yahoo.com

ملخص البحث:

أردنا في بحثنا هذا أن نقف عند هذا الاتجاه الحديث في التفسير، فنحلل قواعده، ونشرح أسسه، ونظهر مرتكزاته ونبين الجديد فيها، فلذا جاءت هذه الدراسة.

ولأجل الوصول إلى هذا الهدف قسم البحث على ثلاثة مباحث رئيسة، هي:

المبحث الأول: وقد جاء بعنوان: ((التفسير الأدبي مفاهيم ودلالات))، وقد تناولنا في هذا المبحث بيان مفهوم مصطلح التفسير الأدبي، ونشأة التفسير الأدبي وتطوره.

والمبحث الثاني: وقد جاء بعنوان: ((منهج التفسير الأدبي وقضاياها))، وقد تناولنا في هذا المبحث بيان المنهج الذي يقوم عليه التفسير الأدبي، ومراحل التفسير الأدبي ومعالمه، وأهم القضايا التي يعنى بها في أثناء تفسير النص القرآني.

والمبحث الثالث: وقد جاء بعنوان: ((نماذج تفسيرية من الاتجاه الأدبي))، وقد تضمن هذا المبحث إيراد نماذج تفسيرية من التفسير الأدبي لأبرز من سار على هذا الاتجاه، وهم: الأستاذ أمين الخولي، وعائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، وسيد قطب.

Abstract

In this research we wanted to stand in this modern direction of interpretation, analyze its rules, explain its foundations, show its bases and show the new ones, so this study came. In order to achieve this goal, the research department is divided into three main topics: The first topic: It was entitled: ((Literary interpretation concepts and indications)), and we discussed in this study the concept of the term literary interpretation, the emergence of literary interpretation and evolution. The second topic: "The Methodology of Literary Interpretation and its Issues". In this topic, we discussed the method of literary interpretation, the stages of literary interpretation and its meanings, and the most important issues that concern it in interpreting the Qur'anic text. And the third topic: It was entitled: ((explanatory models of the literary trend)), and this section included the introduction of explanatory models of literary interpretation of the most prominent of those who followed this trend, namely: Mr. Amin Kholi, Aisha Abdul Rahman Bint Al Shati and Sayed Qutb.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأشرف الصلاة وأتم التسليم على سيد الأولين والآخرين، سيدنا ومولانا محمد المصطفى الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين.
أمّا بعد:

فقد حظي القرآن الكريم وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، بالتفاف أعلام الأمة الإسلامية حوله لفهم نصوصه المطهرة والعمل بما تتضمنه من أحكام كثيرة فيما صلاح الحال والمآل لهذه الأمة الكبيرة.

ولقد تنوعت المصادر التي استقى منها المفسرون مناهجهم لفهم كتاب الله لمحاولة التعرف على فهم دقائقه وإبرازها في صورة لائقة لتكون في متناول الإنسان المسلم الذي يحب كتاب الله تلاوة وفهما والعمل بما يحويه هذا الكتاب من خيري الدنيا والآخرة، ولقد اعتمد المفسرون على مصادر كثيرة تحدت منها مناهجهم وتعددت بتعدد تلك المصادر.

وكان أهم تلك المصادر ما أثر عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في بيان معنى المجمل من القرآن وإيضاح المعنى القرآني وتقريبه، وقد عرف هذا النوع الذي برز في تفسير بعض المفسرين بالتفسير بالمأثور. ومن ثم نشأ زيادة على التفسير بالمأثور: (التفسير بالرأي) القائم على التدبر والفهم لكتاب الله سبحانه وتعالى والاستعانة في ذلك بالعلوم الخادمة لهذا الغرض الجليل وهي كثيرة تعددت وتنوعت فمنها علوم العربية نحوها وصرفها وبلاغتها وما روى عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قولاً وعملاً وغير ذلك من العلوم الكثيرة.

واختلفت أنظار المفسرين وطرقهم ومناهجهم في التفسير تبعاً لاختلاف مشاربهم، فمنهم من غلبت عليه النزعة الفكرية العقائدية فتوسع توسعاً كبيراً في شرح الآيات المتصلة بهذه المعاني، ومنهم من غلبت عليه النزعة الفقهية الشرعية فتوسع توسعاً كبيراً في هذه النواحي وهكذا من توسع في القصص والأخبار ومن توسع في الأخلاق والتصوف والمواعظ وآيات الله في الأنفس والآفاق وغير ذلك، وكذلك كان من المفسرين من أطل مناهجهم من أوجز واختصر ومنهم من توسع في هذا وذاك.

ولقد ترك هؤلاء وهؤلاء ثروة علمية ضخمة، أبانت عن جهود أمة، خدمت كتاب ربها وعينت به عناية فائقة، لا يسبقها في ذلك أمة، حفظاً وضبطاً وشرحاً واستنباطاً لمسائل الشريعة الغراء لتكون الأمة الإسلامية كما أراد الله لها خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر وتؤمن إيماناً حقيقياً بالله سبحانه وتعالى.

ولم تقف الحركة الفكرية عند المسلمين يوماً بالنسبة لكتاب الله سبحانه ولا سيما في هذا العصر الحديث الذي امتاز بالتقارب بين الأجناس، وتكاثر وسائل الاتصال فيه بين الأمم والشعوب وانتعشت فيه وسائل

ال عمران البشرى على وجه العموم، وما زالت هذه المناهج المتعلقة بتفسير كتاب الله تزداد وتتنوع وتتسع وتضيق وتتجدد وتدرس، منها ما هو في دائرة المقبول، ومنها ما هو في دائرة المرفوض، ومنها ما يتردد بين الدائرتين يضرب هنا وهناك.

ولعل بزوغ شمس القرن الرابع عشر الهجري نفث في روح هذه المناهج الحياة من جديد بما جاء به من وسائل وأدوات حديثة تعين على الاطلاع وتساعد على الانتشار، فأشرقت بشروقها شمس المناهج التفسيرية للقرآن الكريم من جديد، وبرزت مناهج جديدة تسعى لكشف مراد الله تعالى من كتابه بأسلوب جديد ومنهج مبتكر، ومن بين هذه المناهج منهج التفسير الأدبي.

ويقوم هذا المنهج، (أي: منهج التفسير الأدبي) على معالجة النصوص القرآنية معالجة تقوم أولاً وقبل كل شيء على إظهار مواضع الدقة في التعبير القرآني ثم بعد ذلك تصاغ المعاني التي يهدف القرآن إليها في أسلوب شيق أخاذ.

إنّ هذا اللون الأدبي الاجتماعي يُعدّ عملاً جديداً في التفسير وابتكاراً يرجع فضله إلى مفسري هذا العصر الحديث وبالتحديد إلى مدرسة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده.

وقد كشفت مدرسة التفسير الأدبي عن بلاغة علوم القرآن وإعجازه وأوضحت معانيه ومرامييه وأظهرت ما فيه من سنن الكون الأعظم. ووقفت بين القرآن وما أثبتته العلم من نظريات صحيحة وجلت للناس أنّ القرآن هو كتاب الله الخالد الذي يستطيع أن يساير التطور الزمني والبشري.

ودفعت ما ورد من شبه على القرآن وفندت ما أثير حوله من شكوك وأوهام كل هذا بأسلوب شيق جذاب يستهوي القارئ ويستولي على قلبه ويحبب إليه النظر في كتاب الله ويرغبه في الوقوف عند معانيه وأسراره ولم تشوه التفسير بالإسرائيليات والروايات الخرافية المكذوبة، ولم تتطرق إلى الأحاديث الضعيفة والموضوعة.

وقد أردنا في بحثنا هذا أن نقف عند هذا الاتجاه الحديث في التفسير، فنحلل قواعده، ونشرح أسسه، ونظهر مرتكزاته ونبين الجديد فيها، فلذا جاءت هذه الدراسة. ولأجل الوصول إلى هذا الهدف قسم البحث على ثلاثة مباحث رئيسة، هي:

المبحث الأول: وقد جاء بعنوان: ((التفسير الأدبي مفاهيم ودلالات))، وقد تناولنا في هذا المبحث بيان مفهوم مصطلح التفسير الأدبي، ونشأة التفسير الأدبي وتطوره.

والمبحث الثاني: وقد جاء بعنوان: ((منهج التفسير الأدبي وقضاياها))، وقد تناولنا في هذا المبحث بيان المنهج الذي يقوم عليه التفسير الأدبي، ومراحل التفسير الأدبي ومعامله، وأهم القضايا التي يعنى بها في أثناء تفسير النص القرآني.

والمبحث الثالث: وقد جاء بعنوان: ((نماذج تفسيرية من الاتجاه الأدبي))، وقد تضمن هذا المبحث إيراد نماذج تفسيرية من التفسير الأدبي لأبرز من سار على هذا الاتجاه، وهم: الأستاذ أمين الخولي، وعائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، وسيد قطب. وختاماً: نرجو أن تكون هذه الدراسة قد أعطت الموضوع حقّه، وأن يفيد منه الباحثون مثلما أفاد البحث من غيره.

المبحث الأول

التفسير الأدبي (مفاهيم ودلالات)

المطلب الأول: مفهوم التفسير الأدبي:

يهدف هذا الاتجاه إلى تفسير القرآن الكريم أدبياً وفنياً، وذلك بالتوجه إلى القرآن ودراسة نصوصه أدبياً وفنياً قبل أي اعتبار آخر على أساس عملية توزيع موضوعاته باعتباره كتاب العربية الأكبر، وهذا هو المقصد الأول والغرض الأبعد عند مفسري هذا الاتجاه وهو الذي ينبغي أن يسبق كل غرض سواه ويتقدم كل مقصد. ولابدّ من الوفاء بهذا الغرض من دون جملة الأغراض الأخرى إذ إنّ القرآن كما يقول أمين الخولي رائد هذا الاتجاه: ((هو كتاب العربية الأكبر، وأثرها الأدبي الأعظم فهو الكتاب الذي أخلد العربية، وحى كيائها وخلّد معها، فصار فخرها وزينة تراثها وتلك صفة القرآن يعرفها العربي مهما يختلف به الدين أو يفترق به الهوى ما دام شاعراً بعربيته مدركاً أنّ العروبة أصله في الناس وجنسه بين الأجناس وسواء وجد ذلك أكان العربي مسيحياً أم وثنياً أم كان طبيعياً دهنياً لا دينياً أم كان المسلم المتحنف فإنّه سيعرف بعروبته منزلة هذا الكتاب في العربية ومكانته في اللغة دون أن يقوم ذلك على شيء من الإيمان بصفة دينية للكتاب أو تصديق خاص بعقيدة فيه))⁽¹⁾.

ثم يكون بعد ذلك لكل ذي غرض أو صاحب أو مقصد بعد الوفاء بهذا الدرس الأدبي أن يعتمد إلى القرآن فيأخذ منه ما يشاء ويقتبس منه ما يريد ويرجع إليه فيما أحب من تشريع أو اعتقاد أو أخلاق أو إصلاح اجتماعي أو غير ذلك، وليس هناك شيء من هذه الأغراض الثانية يتحقق على وجهه - في نظر أصحاب هذا الاتجاه - إلّا حين يعتمد على تلك الدراسة الأدبية لكتاب العربية الأوحده دراسة صحيحة كاملة مفهومة له، وهذه الدراسة تسمى اليوم تفسيراً لأنّها لا يمكن من دونها بيان غرض القرآن ولا فهم معناه⁽²⁾.

يظهر لنا ممّا تقدم ذكره أنّ التفسير الأدبي عند أصحاب هذا الاتجاه، يعني: الدراسة الأدبية الصحيحة المنهج، الكاملة المناحي، المتسقة التوزيع إذ إنّ المقصد الأول من هذا التفسير أدبي محض غير متأثر بأي اعتبار آخر وراء ذلك فكأنّ الدراسة الأدبية هي الأساس الأول في تفسير القرآن الكريم الذي يتوقف عليه تحقيق كل الأغراض الأخرى⁽³⁾.

المطلب الثاني: نشأة تفسير الأدبي وتطوره:

يقول الأستاذ أمين الخولي رائد الاتجاه الأدبي: ((بدأت اشتغل بدرس البلاغة العربية وما البلاغة إلا البحث عن جمال القول كيف وبم يكون، وهذه البلاغة هي روح الأدب والأدب جسمها ومادتها، تعلم صنعه وتبصر بنقده))⁽⁴⁾.

ولمّا كان البيان أهم الفنون البلاغية لذلك يمكن أن نقول: إنّ أولى بذور التفسير الأدبي بدأت في محاولة العلماء لمعرفة وجوه الإعجاز القرآني والوقوف على أسرار البلاغية فهذا أبو هلال العسكري في كتابه الصناعتين يدعو إلى اتقان علوم البلاغة التي لا يهتدي الدارس إلى معرفة إعجاز كتاب الله إلا بعد الإلمام بفنونها ولا يكتفي أبو هلال العسكري بهذا القدر من أهمية البلاغة بل يجعل دراستها في المرتبة الثانية بعد معرفة توحيد الله تعالى فيقول: ((إنّ أحق العلوم بالتعلم وأولها بالحفظ بعد المعرفة بالله جلّ ثناؤه علم البلاغة ومعرفة الفصاحة الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى))⁽⁵⁾.

ثم تطور ظهور المنهج البياني شيئاً فشيئاً بما أبداه العلماء دفاعاً عن القرآن كالرمانى والخطابي والباقلاني والجاحظ وابن قتيبة والشريف الرضي حتى ظهر عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) بكتابه ((دلائل الإعجاز)) و ((أسرار البلاغة)) فأسس بذلك أصول المنهج البياني نظرياً إذ استخدم ذلك في استنباط الأصول الاستعارية والصور التشبيهية والمعالم المجازية لآيات القرآن الكريم، فقد كان قمة لا تسامى في هذا الاتجاه، فهو لم يكتف بالدراسة التقليدية، بل اتجه اتجاهًا جديدًا إذ كان يوضح أسرار البلاغة العالية فيما يتناوله من نصوص كما يحلل النظم القرآني ليقف على دقائق الإعجاز وما كتاباه السابقان إلا ويشكلان دليلاً على جهوده الكبيرة وحسه المرفه وتذوقه لجمال النظم القرآني، وبهذا يكون وحيد عصره في إيضاح صور القرآن البيانية وجوانبه الفنية، إلا أنّ تلك الدراسات لم تشمل القرآن كله بل بقيت نظرات حتى إذا جاء الزمخشري (ت 538هـ) تولى اكمالها بتفصيل قضية النظم في تفسيره الكشف فوقف عند آيات الذكر الحكيم جميعها آيةً آيةً ليبين ما يتعلق بكل نص قرآني من مسائل المعاني والبيان فطبّق ما ابتكره عبد القاهر الجرجاني الذي رسم الخطة وأعد المثل وبين الطريق فتولى الزمخشري التنفيذ⁽⁶⁾ مضيفاً إليه من نكتة البلاغية ما شاء الله حتى جاء تفسيره المسمى ((الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل)) نموذجاً رائعاً لأنّه يمثل المنهج البلاغي في تفسير القرآن الكريم بغض النظر عمّا احتواه من مبادئ الاعتزال، ومع هذا فقد أصبح معتمداً للمفسرين من أهل السنة وغيرهم كالبيضاوي، والنسفي، والتفتازاني، وأبي السعود، وصار كما قال الشيخ الفاضل محمد بن عاشور: ((عمدة الناس على اختلافهم بين مشايخ له ومخالف وعلى وفرة مخالفه وانقطاع مشايحيه يرجعون إليه على أنّه نسيج وحده في طريقتة البلاغية الإعجازية وفي غوصه على دقائق المعاني وحسن إبرازها على طريقة علمية سائغة بتحليل التركيب وإبراز خصائصه واعتباراته))⁽⁷⁾.

ولكن هذا التفسير الذي دأب عليه السلف وتناوله بالوراثة عنهم الخلف لا ينهض بمهمة مواكبة القرآن الكريم للحياة الناهضة المتقدمة لأنَّ التأكيد على الجانب اللفظي من نحو وبلاغة ومعنى عام لا يستجيب لكل مشكلات العصر التي أهدت بالمسلمين في العصر الحديث، لذلك انبرى جماعة من العلماء والمفكرين مجردين أفلامهم وأفكارهم إلى مثل هذا اللون من التفسير وفي طليعتهم ((أمين الخولي)) يفكرون بإيجاد منهج تفسيري يواكب النهضة العصرية والتقدم الحضاري ويعطي الأجوبة لكل التساؤلات، والحلول لكل المعضلات التي أحاطت بالمسلمين في العصر الحاضر، من هنا بدأ تطور هذا اللون من التفسير الذي تجلّى مخالفة المفسرين القدامى في تعرضهم للتفسير سورة سورة وآية آية على الطريقة التقليدية ابتداء من بسملة الفاتحة وانتهاء بسورة الناس، إذ ليس التفسير التسلسلي التقليدي بأمر توقيفي حتى لا يجوز مخالفة أسلوبه، والغاية التي هدف إليها هؤلاء العلماء والمفكرون في هذا التطور من تبوء القرآن الكريم مكانته في الحياة والتشريع والاجتماع والاقتصاد والتاريخ والفلسفة والعلم، وهذا لا يتأتى إلا بالتفسير الموضوعي للقرآن عن طريق تفسير القرآن موضوعاً موضوعاً وذلك بأن ((تجمع الآيات الخاصة بالموضوع الواحد جمعا احصائياً مستقصياً ويعرف ترتيبها الزمني ومناسباتها وملابساتها الخاصة بها ثم ينظر بعد ذلك لتفسير وتفهم فيكون ذلك التفسير أهدى إلى المعنى وأوثق في تحديده، وليس تفسير القرآن سورة سورة إلا تعرضاً مفرقاً لموضوعات مختلفة تنتظمها السورة الواحدة ثم يعود المفسر ذلك في السورة الأخرى إلى مثل هذه الموضوعات أنفسها))⁽⁸⁾. وبهذه الطريقة يتمكن المفسر من الكشف عن مراد الله تعالى في كل موضوع من الموضوعات القرآنية كافة. هذه هي نظرة أنصار هذا الاتجاه إلى التفسير اليوم وهذا هو غرضهم من التفسير الأدبي.

المبحث الثاني: منهج التفسير الأدبي وقضاياها

المطلب الأول: منهج التفسير الأدبي:

لقد نشطت الدراسات الأدبية لنصوص القرآن الكريم في العصر الحاضر نشاطاً حافلاً على أيدي جماعة من ذوي الاختصاص وكان في طليعتهم الأستاذ أمين الخولي الذي جمع روح الإخلاص إلى الفهم المستنير وسداد المنطق وبعد النظر، فرسم لنا الإطار العام لمنهج التفسير الأدبي كما جاء في كتابه (مناهج تجديد) بنقلها عنه بشيء من الإيجاز فهو يرى أنَّ منهج التفسير الأدبي للقرآن صنفان: دراسة حول القرآن ودراسة في القرآن، فدراسة ما حول القرآن خاصة: مثل ما يتعلق بنزوله وجمعه وقراءته وما يسمى بعلوم القرآن بصفة عامة.

ودراسة عامة: هي ما يتصل بالبيئة المادية والمعنوية التي فيها نزل القرآن وجمع وكتب وقُرئ؛ لأنَّ روح القرآن عربية ومزاجه عربي وأسلوبه عربي، والنفاد إلى مقاصده يكون بفهم الروح العربية والمزاج العربي والذوق العربي، وإن كان للقرآن معاني، ومرام وإنسانية واجتماعية بعيدة الهدف أبدية العمر ولكن ذلك كله إنما جاء الإنسانية في ثوبه العربي وبذلك التعبير العربي والتمثل التام لهذه العروبة هو السبيل المتعينة لفهم ذلك كله والوصول إلى مقاصده.

وأما الدراسة الثانية فدراسة في القرآن وذلك بالنظر في المفردات وتدرج دلالة الألفاظ وتأثيرها في هذا التدرج ما بين الأجيال وبفعل الظواهر النفسية والاجتماعية وعوامل حضارة الأمة وما إلى ذلك مما تعرضت له هذه الألفاظ العربية ونرجو أن نمتلك قاموساً اشتقاقياً تدرج فيه دلالات الألفاظ وتتمايز فيه المعاني اللغوية على ترتيبها من المعاني الاصطلاحية حسب ظهورها، حيث تثقل المفسر من النظر اللغوي في الكلمات إلى معناها الاستعمالي في القرآن فيتعرفه ويتبعه ثم ينظر في المركبات مستعيناً بالعلوم الأدبية من نحو وبلاغة وصرف وغيرها على أن تكون هذه العلوم وسائل لا مقاصد ويهدف إلى تعرف الجمال القولي في الأسلوب القرآني⁽⁹⁾.

هذه هي الأسس العامة لمنهج التفسير الأدبي، فهي وإن كانت واضحة الخطة مرسومة الهدف، إلا أن تحقيقها يحتاج إلى بذل جهود كبيرة جداً للوصول إلى الغاية التي هي تذوق القرآن تذوقاً أدبياً فنياً قبل كل شيء، وقد استشعر أمين الخولي نفسه ثقل هذا المنهج على الباحثين ومتطلباته الكثيرة المعوقة فعبّر عن ذلك قائلاً: ((ولئن كان مثل هذا ممّا يطلب أو يوصف في قليل من الجمل أو الأسطر فإنّ تحقيقه ليس بهذه السهولة والقرب، وإنّما يقوم على إصلاح أدبي بلاغي يحسب أنّ الحياة الأدبية اليوم تحاوله ومستفيدة به في التفسير الأدبي للقرآن، كما تستفيد هذه المحاولة الإصلاحية نفسها بمزاولتها للتفسير القرآني))⁽¹⁰⁾.

أما طريقته في تناول النصوص القرآنية، فقد أوضحها تلميذته الدكتورة بنت الشاطي، إذ تقول في مقدمة كتابها ((التفسير البياني للقرآن الكريم)) ما نصه: ((والأصل في منهج التفسير الأدبي - كما تلقيته عن شيخي - (تريد به الأستاذ أمين الخولي) هو تناول الموضوعي الذي يفرغ لدراسة الموضوع الواحد فيه فيجمع كل ما في القرآن عنه ويهتدي بمألوف استعماله للألفاظ والأساليب بعد تحديد الدلالة اللغوية لكل ذاك وهو منهج يختلف تماماً عن الطريقة المعروفة في تفسير القرآن سورة سورة، يؤخذ اللفظ أو الآية فيه مقتطعاً من سياقه العام في القرآن كله ممّا لا سبيل معه إلى الاهتداء إلى الدلالة القرآنية لألفاظه أو استجلاء ظواهره الأسلوبية وخصائصه البيانية.

وقد طبق بعض الزملاء هذا المنهج تطبيقاً ناجحاً في موضوعات قرآنية اختاروها لرسائل الماجستير والدكتوراه، وأتجه بمحاولتي اليوم إلى تطبيق المنهج في تفسير بعض سور قصار ملحوظ فيها وحدة الموضوع، فضلاً عن كونها جميعاً من السور المكية حيث العناية بالأصول الكبرى للدعوة الإسلامية وقصدت بهذا الاتجاه إلى توضيح الفرق بين الطريقة المعهودة في التفسير وبين منهجنا الحديث الذي يتناول النص القرآني في جوه الإعجازي ويلتزم في دقة بالغة مقولة السلف الصالح: ((القرآن يفسر بعضه بعضاً))، وقد قالها المفسرون ثم لم يبلغوا منها مبلغاً ويحرر مفهومه من كل العناصر الدخيلة والشوائب المقحمة على أصالته البيانية))⁽¹¹⁾.

هذه هي طريقة الشيخ أمين الخولي في التفسير الأدبي كما وضحتها الدكتورة الفاضلة وسوف نمثل لهذا المنهج بصورة من التفسير الأدبي من كتابها القيم (التفسير البياني للقرآن الكريم) فقد قدمت فيه منهجاً رائعاً وتطبيقاً دقيقاً في التحليل لمنهج أستاذها أمين الخولي.

المطلب الثاني: مراحل التفسير الأدبي ومعامله:

حين نريد الحديث عن مراحل التفسير الأدبي ومعامله، فإننا لا نقصد بها المراحل التي مرَّ بها التفسير الأدبي عبر تاريخ التفسير. ولكن نقصد ذكر المراحل التي يمرُّ بها المفسر الواحد في العصر الحديث لتطبيق المنهج الأدبي في التفسير كما بسطها صاحبه.

ويمكن ذكر هذه المراحل مرتبة على وفق التسلسل الآتي، مستخلصة من كلام الأستاذ أمين الخولي ممَّا أورده وذكره في مؤلفاته (12):

المرحلة الأولى: التفسير الموضوعي:

وهي المرحلة التي أشار إليها الأستاذ أمين على أنَّها النظر بين يدي الخطوة إذ قال: ((والقرآن كما هو المعروف لم يُرتَّب على الموضوعات والمسائل فيفرد كل شيء منها باباً أو فصل، يجمع ما ورد فيه عن هذا الموضوع أو تلك المسألة فليس على ترتيب كتب العقائد مع ما فيه من أصول العقيدة وليس على ترتيب كتب التشريع مع ما فيه من أصول التشريع، ولا هو كذلك على نسق كتب الأخلاق أو التاريخ ولا القصص ولا غير ذلك، بل ليس على ترتيب بعض كتب الدين حين أفردت أحداث الحياة بأسفار عنونت كل سفر منها بحادث، أو حين جرت على تسلسل حياة فرد خصت كل حين منها بقسم. كما لم يُرتَّب على شيء من تاريخ ظهور آياته إنَّما جرى القرآن على غير هذا كله. فعرض لكثير من الموضوعات ولم يجمع منها واحداً بعينه فيلتقي أوله بآخره ويعثر به في مكان معين... وإنَّما نثر ذلك كله نثراً وفرقه تفريقاً فالحكم التشريعي في أكثر من موضع، والأصل الاعتقادي قد عرض له غير مرة، والقصة قد وزعت مناظرها ومشاهدها في جملة أماكن، وهكذا تقرأ في السورة الواحدة فنوناً من القول وتمر بألوان من الأغراض المختلفة تعرض لها سورة أخرى فيتكامل العرضان، وتتم الفكرة بتتبعها في مواطن متعددة وذلك لحكمة ومرمى)) (13).

ويؤكد الأستاذ أمين أنَّ لهذا الواقع في موضوعات القرآن الكريم أثره في طريقة تناول القرآن بالتفسير وأنَّ طريقة السلف في تفسيره مرتباً لا تمكن من الفهم الدقيق والإدراك الصحيح لمعانيه وأغراضه. هذه هي الخطوة الأولى التي يجب أن يخطوها المفسر تفسيراً بيانياً كما يراها الأستاذ أمين الخولي.

المرحلة الثانية: الترتيب الزمني للآيات ذات الموضوع الواحد:

وهي ذات صلة وعلاقة قوية بالمرحلة السابقة حتى وكأنَّهما خطوة أو مرحلة واحدة. تلکم المرحلة هي مراعاة الترتيب الزمني للآيات ذات الموضوع الواحد، ويقصد بها أنَّ المفسر بعد أن يجمع آيات موضوع بعينه يجب أن يخطو الخطوة الثانية فيرتب هذه الآية حسب ترتيب نزولها وأكد هذا الأستاذ أمين الخولي حين قال: ((وترتيب القرآن لم يراع شيئاً من تقدم الزمن وتأخره، فمكيه يتخلل مدنيه ويحيط به ومدنيه يتخلل

مكيه ويحيط به. وهكذا ترى من النظر في ترتيب القرآن على سوره — أي ترتيب كان في المصاحف المختلفة — ما لا يساير حاجات مفسره المتفهم له، بل يقضي ما كان من أمر الترتيب: بالنظر الجديد والترتيب الخاص لأي الموضوع بحيث يكشف هذا الترتيب لنا عن تلك النواحي التي عرفت أن المفسر المتفهم مضطر إلى مراعاتها وتقديرها توصلًا إلى الفهم الصحيح والمعنى الدقيق⁽¹⁴⁾.

إذاً فهو يرى وجوب ترتيب أي الموضوع الواحد ترتيباً خاصاً بحيث يكشف هذا الترتيب عن النواحي التي يحتاجها المفسر للوصول إلى الفهم الصحيح. ثم أجمل الأستاذ أمين القول في المرحلتين السابقتين بقوله: ((فجملة القول أن ترتيب القرآن في المصحف قد ترك وحدة الموضوع لم يلتزمها مطلقاً، وقد ترك الترتيب الزمني لظهور الآيات لم يحتفظ به أبداً، وقد فرق الحديث عن الشيء الواحد والموضوع الواحد في سياقات متعددة، ومقامات مختلفة ظهرت في ظروف مختلفة وذلك كله يقضي في وضوح: بأن يفسر القرآن موضوعاً موضوعاً وأن تجمع آية الخاصة بالموضوع الواحد جمعاً إحصائياً مستقصى.

ويعرف ترتيبها الزمني ومناسباتها وملابساتها الحافة بها ثم ينظر فيها بعد ذلك لتفسير وتفهم فيكون ذلك التفسير أهدى إلى المعنى وأوثق في تحديده⁽¹⁵⁾.

المرحلة الثالثة: الدراسة:

وتعد المرحلتان السابقتان تمهيداً وتوطئة للمرحلة الثالثة إذ أن هذه الأخيرة هي جسد التفسير البياني وأن المرحلتين السابقتين هما القاعدة لهذا الجسد. ويقسم الأستاذ أمين الخولي هذه الدراسة إلى صنفين، هما: 1- دراسة حول القرآن. 2- دراسة في القرآن.

أولاً: دراسة ما حول القرآن:

فقسمها أيضاً إلى قسمين دراسة خاصة ودراسة عامة قال عن أولهما: ((والدراسة الخاصة هي ما لا بُدَّ لمعرفته، ممّا حول كتاب جليل كهذا الكتاب: ظهر في نحو عشرين عاماً أو كذا وعشرين عاماً ثم ظل مفزقاً سنين حتى جمع في أدوار مختلفة وكان جمعه وكتابته عملاً ساير الزمن طويلاً، وناله من ذلك ما ناله. ثم هناك قرآته ومسيرة هذه القراءة للتطور اللغوي الذي تعرضت له اللغة العربية بفعل النهضة الجادة التي أثارها الدعوة الإسلامية والدولة الإسلامية. فقد كانت هذه القرارات عملاً ذا أثر واضح في حياة الكتاب وفهمه. وتلك الأبحاث من نزول، وجمع، وقراءة، وما إليها التي عرفت اصطلاحاً منذ حوالي القرن السادس الهجري باسم علوم القرآن، بعد ما تناولها المفسرون المختلفون قبل ذلك بالبحث المجمل، والبيان المتفاوت في الاستيفاء حسب عناية المفسر واهتمامه، ومثل تلك الأبحاث جد لازمة في نظر دارسي الآثار الأدبية ولا بُدَّ منها لفهم النصوص المدروسة والاتصال بها اتصالاً مجدياً⁽¹⁶⁾، إلى أن قال: ((وهي دراسات ضرورية لتناول التفسير.. حتى ما ينبغي مطلقاً أن يتقدم لدرس التفسير من لم ينل حظه من تلك الدراسة القريبة الخاصة حول القرآن، ليستطيع فهمه فهماً أدبياً صحيحاً مسترشداً بتلك الملابس الهامة في فهم

القرآن))⁽¹⁷⁾، و خلاصة الأمر أنَّ الأستاذ أمين الخولي يشترط للتفسير الأدبي دراسة خاصة حول القرآن الكريم نحو دراسة تاريخيه ونزوله وجمعه وترتيبه وناسخه ومنسوخه وبعبارة أخرى يشترط على المفسر أن يكون عالماً بأصول العلوم المتصلة بالقرآن والمعروفة بعلوم القرآن.

وأما الدراسة العامة لما حول القرآن الكريم فقال عنه الأستاذ أمين: ((وأما ما حول القرآن من دراسة عامة فهو ما يتصل بالبيئة المادية والمعنوية التي ظهر فيها القرآن وعاش، وفيها جُمع وكُتِبَ وقُرئ وحُفِظَ وخاطب أهلها أول من خاطب وإليه ألقى رسالته لينهضوا بأدائها، وإبلاغها شعوب الدنيا. فروح القرآن عربية، ومزاجه عربي وأسلوبه عربي)) (قرائناً عربياً غير ذي عوج)⁽¹⁸⁾، والنفاذ إلى مقاصده إنَّما يقوم على التمثيل الكامل والاستشفاف التام لهذه الروح العربية وذلك المزاج العربي، والذوق العربي ومن هنا لزمّت المعرفة الكاملة لهذه البيئة العربية المادية أرضها بجبالها وحرارها وصحاريها وقيعانها وسماؤها بسحابها ونجومها وأنوائها وجوها بحرّه وبرده وعواصفه وأنسامه وطبيعتها بجديها وخصبها وقحولها أو نمائها ونباتها وشجرها... الخ، فكل ما يتصل بتلك الحياة المادية العربية وسائل ضرورية لفهم هذا القرآن العربي المبين.

مع هذا ما يتصل بالبيئة المعنوية بكل ما تتسع له هذه الكلمة من ماضي سحيق، وتاريخ معروف ونظام أسرة أو قبيلة، وحكومة في أي درجة كانت وعقيدة بأي لون تلونت، وفنون مهما تنوع، وأعمال مهما تختلف وتتعشّب، فكل ما تقوم به الحياة الانسانية لهذه العروبة. وسائل ضرورية كذلك لفهم هذا القرآن العربي المبين. خلاصة الأمر أنَّ الأستاذ أمين يشترط أن يدرس المفسر دراسة عامة لما يتصل بالبيئة التي نزل بها القرآن سواء أكانت هذه البيئة مادية كالظواهر الجوية والأرض بجبالها وأوديتها وحرارها والسماء ونجومها وافلاكها أو كانت البيئة معنوية كتاريخ هذه الأمة في ماضيها ونظمها وأعرافها وعاداتها وتقاليدها.

ثانياً: دراسة القرآن نفسه:

وحتى تظهر معالم الطريق في هذه المرحلة أحبُّ أن أجمل الخطوات في هذه الدراسة لننطلق منها إلى التفاصيل. فدراسة النص نفسه تنقسم كما يريد الأستاذ أمين إلى قسمين:

1- دراسة في المفردات، من ناحيتين:

(أ) من ناحية معناها اللغوي. (ب) من ناحية معناها القرآني.

2- دراسة في المركبات.

قال الأستاذ أمين الخولي في بسط النظر في المفردات: ((وهي تبدأ بالنظر في المفردات. والمتأدب يجب أن يقدر عند ذلك تدرج دلالة الألفاظ، وتأثيرها في هذا التدرج يتفاوت ما بين الأجيال وبفعل الظواهر النفسية والاجتماعية، وعوامل حضارة الأمة وما إلى ذلك ممّا تعرضت له ألفاظ العربية في تلك الحركة الجياشة المتوثبة التي نمت بها الدولة الإسلامية، والنهضة الدينية والسياسية والثقافية التي خلفت هذا الميراث الكبير من الحضارة... وقد تداولت هذه اللغة العربية في تلك النهضة أفواه أمم مختلفة الألوان والدماء والماضي والحاضر فتهيأت من كل ذلك خطوات تدريجية فسيحة متباعدة في حياة ألفاظ اللغة العربية حتى أصبح

من الخطأ البين أن يعتمد متأدب إلى فهم ألفاظ هذا النص القرآني الأدبي الجليل فهماً لا يقوم على تقدير تام لهذا التدريج والتغيير الذي مسَّ حياة الألفاظ ودلالاتها، وعلى التنبيه إلى أنَّه إنَّما يريد ليفهم هذه الألفاظ في الوقت الذي ظهرت فيه وتليت أول ما تليت على من حول تالها الأول عليه السلام))، إلى أن قال: ((إذا كان هذا هو الأصل الأول في فهم دلالة ألفاظ القرآن فمن لنا به مع أنَّ معاجمنا لا تسعف عليه ولا تعين؟))⁽¹⁹⁾.

إذاً فالأستاذ أمين الخولي يرى أنَّ الخطوة الأولى في دراسة النص نفسه هي النظر في المفردات وذلك بوضع ترتيب زمني لتدرج دلالات الألفاظ ليعرف معنى اللفظة الواحدة وقت نزول القرآن الكريم ومعناها بعد أن تداولتها أفواه مختلفة الألوان والماء ليتم التمييز بين المعنى اللغوي والمعنى القرآني.

وهو أيضاً يرى أنَّه لا يوجد معجم يفي بهذا الغرض حتى الآن، ورتب على هذا أن يقوم المفسر الأدبي بتحمل عبء متابعة تدرج اللفظ ومن ثم اختيار ما يراه مناسباً للفظ القرآنية وقت نزول القرآن الكريم من معانٍ أخرى.

ورتب الأستاذ الخولي على هذا أيضاً أن ينظر المفسر الأدبي في الألفاظ القرآنية من ناحيتين:

1 — النظر في المادة اللغوية للفظ الذي يريد تفسيره، لينجي فيها المعاني اللغوية عن غيرها ثم ينظر في تدرج المعاني اللغوية للمادة نظراً لترتيبها على الظن الغالب فتقدم الأسبق الأقدم منها على السابق حتى يطمئن — ما استطاع — إلى شيء في ذلك ينتهي منه إلى ترجيح معنى لغوي للكلمة كان هو المعروف حين سمعتها العرب في أي الكتاب... والمفسر في هذا التمييز والنظر ملم ما أمكن بمحدث الدراسة في أنسب اللغات وصلة ما بينها، ليطمئن كذلك إلى أنَّ الكلمة عربية أصيلة، أو هي دخيلة، وإن كانت فما بيتها؟ وما معناها الأول؟ ثم هو محاذر كذلك من اندفاع معاجمنا في رد الكلمات إلى أصل عربي يشابهها في اللفظ، مع التكلف في الاشتقاق والربط.

2 — وإذا ما فرغ من البحث في معنى اللفظة اللغوية انتقل بعده إلى معناها الاستعمالي في القرآن يتبع ورودها فيه كله، لينظر في ذلك فيخرج منه برأي عن استعمالها، هل كانت له وحدة أطردت في عصور القرآن المختلفة ومناسباته المتغيرة؟ وإن لم يكن الأمر كذلك فما معانيها المتعددة التي استعملها فيها القرآن؟ وبذا يهتدي بمعناها أو معانيها اللغوية إلى معناها أو معانيها الاستعمالية في القرآن، وهو بما ينتهي إليه من كل أولئك يفسرها مطمئناً في موضعها من الآية التي جاءت فيها))⁽²⁰⁾.

من هاتين الناحيتين الناحية اللغوية وناحية الاستعمال القرآني أوجب الأستاذ الخولي النظر في مفردات القرآن لينتقل المفسر الأدبي بعد هذه النظرة إلى النظر في المركبات.

2- دراسة في المركبات.

والخطوة التالية للنظر في المفردات هي النظر في المركبات، وقد وضّح الأستاذ أمين الخولي أصول هذه النظرة وما تحتاج إليه بقوله: ((ثم بعد المفردات يكون نظر المفسر الأدبي في المركبات وهو في ذلك — ولا مرية

— مستعين بالعلوم الأدبية من نحو وبلاغة... الخ، ولكن لا على أنَّ الصنعة النحوية عمل مقصود لذاته، ولا لون يلون التفسير كما كان الحال قديماً... بل على أنَّها أداة من أدوات بيان المعنى وتحديده، والنظر في اتفاق معاني القراءات المختلفة الآيات الواحدة والتقاء الاستعمالات المتماثلة في القرآن كله... ثم على أنَّ النظرة البلاغية في هذه المركبات ليست هي تلك النظرة الوصفية التي تعنى بتطبيق اصطلاح بلاغي بعينه، وترجيح أنَّ ما في الآية منه هو كذا لا كذا، أو إدراج الآية في قسم من الأقسام البلاغية دون قسم آخر، كلا بل على أنَّ النظرة البلاغية هي النظرة الأدبية الفنية التي تتمثل الجمال القولي في الأسلوب القرآني وتستبين معارف هذا الجمال وتستجلي قساماته في ذوق بارع قد استشف خصائص التراكيب العربية منضمّاً إلى ذلك التأملات العميقة في التراكيب والأساليب القرآنية لمعرفة مزاياها الخاصة بها بين آثار العربية، بل لمعرفة فنون القول القرآني وموضوعاته فناً فناً، وموضوعاً موضوعاً، معرفة تبين خصائص القرآن في كل فن ومزاياه التي تجلو جماله⁽²¹⁾.

تلكم هي الخطوط الرئيسية التي رسمها الأستاذ أمين الخولي للتفسير الأدبي للقرآن الكريم وإن أردنا أن نذكرها اجمالاً فهي⁽²²⁾:

- أولاً: جمع الآيات ذات الموضوع الواحد بعضها إلى بعض وتدبرها جميعاً وتفسيرها كذلك.
- ثانياً: ترتيب آيات الموضوع الواحد ترتيباً زمنياً حسب تاريخ نزولها.
- ثالثاً: دراسة خاصة حول النص تقوم على تاريخه ونزوله وجمعه وكتابته وقراءته ونحو ذلك من علوم القرآن.
- رابعاً: دراسة عامة للبيئة التي نزل بها هذا النص، البيئة المادية في الأرض والسماء والجبال والسهول والأودية وبيئة معنوية في تاريخ هذه الأمة ونظمها واعرافها وعاداتها وتقاليدها.
- خامساً: دراسة النص القرآني في مفرداته وذلك بدراسة: استعمالات هذه المفردة لغوياً. ودراسة استعمالها في القرآن الكريم في مواضع مختلفة ومدلولها في كل موضع.
- سادساً: دراسة النص القرآني في معانيه المركبة وذلك بالاستعانة بالعلوم الأدبية من نحو وبلاغة على أنَّ النحو أداة من أدوات بيان المعنى وتحديده، وعلى أنَّ البلاغة هي النظرة الأدبية الفنية التي تتمثل الجمال القولي في الأسلوب القرآني، مع التأملات العميقة في التراكيب والأساليب القرآنية لمعرفة مزايا كل منها ولمعرفة فنون القول القرآني وموضوعاته.

المطلب الثالث: قضايا التفسير الأدبي

أولاً: قضية الإعجاز البياني:

إنَّ من المباحث التي يعالجها التفسير الأدبي قضية إعجاز القرآن الكريم والذي يسترعي الانتباه أنَّ كبار العلماء على ما لهم من سعة في العلم وغزارة في المعرفة وقفوا حيارى مهوَّرين أمام إعجاز القرآن الكريم فراحوا يرددون وجوهاً عدة نجمل أهمها على الوجه الآتي:

فمنهم من يرى أنَّ إعجاز القرآن في الصورة التي جاء عليها القرآن لفظاً ومعنى وروحاً تسري فيه بين اللفظ والمعنى وبذلك يكون الجمع بين أصح المعاني بأفصح الألفاظ وأبلغ الأساليب، وهذا الجمع هو قمة البلاغة التي تستولي على المشاعر والأحاسيس بما تلقيه فيها من جلال وتقذفه من رهبة وبذلك يكون إعجاز القرآن في مستواه البلاغي الرائع هو المعجز وإلى هذا ذهب الخطابي⁽²³⁾، والرماني⁽²⁴⁾، والباقلاني⁽²⁵⁾، والجرجاني⁽²⁶⁾، والزمخشري⁽²⁷⁾، والرافعي⁽²⁸⁾، وهو ما يسمى بالإعجاز البياني، ومنهم من يرى أنَّ الإعجاز بما اشتمل عليه القرآن من الغيب والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية والتشريع لشؤون الحياة، ومنهم من يرى أنَّ الإعجاز يرجع إلى التأثير النفساني للقرآن الكريم الذي يتمثل بتلك المشاعر التي تستولي على عقول من يتلون آيات الله ويستمعون إليها وما يغشونه من جلال ورهبة بسبب صنيعة للقلوب وتأثيره في النفوس.

وممَّن ذهب إلى هذا المذهب الأخير من القدامى الخطابي⁽²⁹⁾، ومن المحدثين أمين الخولي⁽³⁰⁾، ومصطفى صادق الرافعي⁽³¹⁾، وعبد الوهاب حمودة⁽³²⁾، ومنهم من يرى أنَّ الإعجاز يرجع إلى ما في القرآن من مبادئ علوم الطبيعة والفلك والنبات والحيوان والطب وغيرها، وقد قال به بعض العلماء قديماً وحديثاً كالرازي في تفسيره والسيد عبد الرزاق نوفل في كتابه (القرآن والعلم الحديث).

نخلص من هذا كله إلى أنَّ أشهر وجوه الإعجاز القرآن هو الإعجاز البياني عند أكثر الكُتّاب إذ يتجلى هذا الإعجاز في بلاغة نظمه وفصاحة أسلوبه وصياغته الفنية، كل هذه السمات دفعت البلاغيين لتوضيح الجوانب الفنية والبلاغية للقرآن فيما يتجلى أثره بين اللفظ واللفظ والجملة إذ ذهبوا إلى الموازنة بين آيات الكتاب الكريم وما وقع على معناها من مآثور البيان العربي كالاستعارة والمجاز والكناية وما يعرض في تركيبه من تقديم وتأخير وذكر وحذف وفصل ووصل، وقصر واختصاص، وخضوع هذا النظام كذلك إلى ما اقتضاه علم النحو من مصطلحات، ومن أشهر هؤلاء الكُتّاب الجرجاني والزمخشري اللذان غلب عليهما الذوق الأدبي والمعياري الجمالي لسلامة فطرتهم ونقاء طبيعتهما فلم تفسد ذوقهما الأساليب الفلسفية والمذاهب الكلامية التي تحكمت في أساليب معاصريهما⁽³³⁾.

وأما الرافعي فكان من المحدثين الذين لم تختلف نظرتهم إلى هذا النوع من الإعجاز إلّا بمقدار ما أضافوه من مستحدثات المعرفة والربط بينها وبين النسق القرآن بمراعاة لوازم العلاقة بين المعنى والوجدان وبين الوحي والروح، ممَّا لا تدركه بلاغة الإنسان، إذ لم تخرج أبحاثه في النظم البياني عن الوجوه القديمة التي رسمها الجرجاني والزمخشري إلّا في التفصيلات، فقد حصر وجوه الإعجاز في صفات من نظم القرآن وطريقة تركيبه وفصل ذلك فقال: ((والكلام بالطبع يتركب من ثلاثة: حروف هي من الأصوات، وكلمات هي من الحروف وجمل هي من الكلم، وقد رأينا أنَّ سر الإعجاز في نظم القرآن يتناول كلها))⁽³⁴⁾، ثم قال: ((فالحرف الواحد من القرآن معجز في موضعه لأنَّه يمسك الكلمة التي هو فيها ليمسك بها الآية، والآيات الكثيرة وهذا هو السر في إعجاز جملته إعجازاً أبدياً))⁽³⁵⁾.

وقد اتجه هذا الاتجاه أيضاً الإمام محمد عبده⁽³⁶⁾، وسيد قطب⁽³⁷⁾، والدكتور محمد عبد الله دراز، وقد كشف الأخير عن الجمال التنسيقي في وصف الحروف وتآلفها على وجهة ذات توافق وانسجام، كما كشف عن وحدة السورة القرآنية وأوضح جمالها الفني المتجلي في ائتلاف ألفاظها مع المعاني واتساق جملها في المعنى وتناسب آياتها فيما بينها على أجمل شكل وأبهى صورة فيعبر عن ذلك فيقول: ((أجل إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضغاثاً من المثاني حشيت حشواً وأوزاعاً من المباني جمعت عفواً فإذا هي - لو تُدِيرَتْ - بنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أساس وأصول وأقيم على كل أصل منها شعب وفصول، وأمتد من كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بيان واحد قد وضح رسمه مرة واحدة، لا تحس بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق ولا شيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضام والالتحام، كل ذلك بغير تكلف ولا استعانة بأمر من خارج المعاني أنفسها، وإنما هو حسن السياقة ولطف التمهيد في مطلع كل غرض، ومقطعه، وأثنائه، يريك المنفصل متصلاً والمختلف مؤتلفاً))⁽³⁸⁾.

وهكذا يجعلنا دراز بهذا التصوير القرآني في التجسيم والتخييل والتسلسل المعنوي الذي بلغ مداه، نحس بالسورة مجسمة كأننا نراها رأي العين.

والذي يظهر أن إعجاز القرآن ظاهر في عدة وجوه ولكن أعظمها أثراً في النفوس هو الوجه البياني والدليل على ذلك هو أن جهابذة العرب في البيان وأساطينهم في البلاغة لم يندهشوا إلا بهذا الجمال البياني الذي يسري في نظم القرآن ويتجلى في أسلوبه، فأسرع المنصفون منهم إلى الإقرار بإعجازه البياني، وقد أيد أكثر الأدباء والكتّاب هذا الوجه من الإعجاز، فهذا الكاتب البليغ أحمد حسن الزيات يقول: ((تناصرت الأدلة وانعقد الإجماع على أن القرآن معجز وإنما الخلاف في سبب إعجازه فمن قائل أنه شرف الغرض وتنوع القصد والإخبار بالغيب، ومن قائل أنه الفصاحة الرائعة والمذهب الواضح، والأسلوب الموثق ونحن إلى هذا الرأي أميل، فإن القوم الذين تحدوا به لم يكونوا فلاسفة ولا فقهاء حتى يكون عجزهم عن الإتيان بمثله معجزة، إنما كانوا بلغاء مصادع وخطباء مصافح وشعراء فحولاً، وفي القرآن من دقة التمثيل والتشبيه وبلاغة الإجمال والتفصيل وروعة الأسلوب وقوة الحجاج ما يعجز طوق البشر ويرمي المعارضين بالسكات والحصر))⁽³⁹⁾.

حقاً أن الإعجاز القرآني يقوم في جوهره على تقييم النص القرآني والكشف عن أسباب جماله ممّا أرفد اللغة العربية بمباحث بلاغية ملونة الجمال كانت المصدر الذي استمدت منه بحوث البلاغيين وجودها الجمالي.

ثانياً: قضية الإعجاز النفسي:

ذكرنا في أول هذا المطلب أنَّ أهم وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، هو الإعجاز البياني الذي وقف العرب عنده مهوتين حين تحداهم وكانوا أمراء البيان وأرباب الفصاحة وأساطين البلاغة، غير أنَّ القرآن الذي نزل معجزة للعالمين لا يمكن أن يدور إعجازه في الإحساس الفطري والتذوق البياني فقط لذلك فطن إلى هذا الأمر عدد من العلماء الذين لمسوا ما أحدثه القرآن من أثر في النفوس الإنسانية فما من امرئ سليم الفكر نقي الضمير يتلو القرآن أو يستمع إليه إلَّا تأثر به وهذا ما أحدثه القرآن فعلاً من انقلاب اجتماعي بين العرب، وهم الذين تملكهم الحمية العصبية فما طرقت آيات القرآن مسمعون أو تلتها ألسنتهم حتى غدوا أمةً غير الأمة فخلعوا عاداتهم الموروثة من عبادتهم لغير الله وتقاليدهم البالية وتغيرت نفوسهم المزدولة؛ لأنَّه ما من هاجس يُعْرَضُ للنفس الإنسانية ويتعلق بالناحية الدينية إلَّا ويَعْرِضُ القرآن له بالهداية وسداد التوجيه، وإنَّ نزول القرآن الكريم بأسلوبه الفريد على أولئك العرب جميعاً دليل على معرفته لنفوسهم وما تحتوي عليه من زلات وجموح وإنكار، ثم تكفله بإزاحتها كلها، فخضعت نفوسهم للحق واستكانت لله عزَّ وجلَّ، فإنَّك لا تسمع كلاماً غير القرآن تقشعر منه الجلود وتتأثر به القلوب ويحول بين النفس ومضمراتها وعقائدها الراسخة فيها، فكم من عدو للرسول صلى الله عليه وآله وسلم من فُتَّاك العرب أقبلوا يريدون اغتياله فلمَّا سمعوا آيات القرآن لم يلبثوا أن تحولوا عن رأيهم الأول وركنوا إلى مسالمتة والدخول في دينه، وهكذا استطاع القرآن الكريم أن يستل ما في نفوس العرب من بغضاء وغلظة وجفاء بفضل ما ضربه من الأمثال المؤثرة في النفوس، وقد عبر الله عن هذه الحقيقة فقال: ((ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً))⁽⁴⁰⁾.

والمقصود بهذا أنَّ القرآن يملك على الإنسان نفسه بالوسيلة الوحيدة التي تقهر تفوقه في الجدل وذلك بتقديم الدليل المفحم لكل شبهة وتسليط البرهان القاهر على كل حجة⁽⁴¹⁾، فمهما بلغت قوة الإنكار عند بعض الناس فإنَّهم إذا قرأوا القرآن أو سمعوه رجعوا بنفس غير النفس التي جاءوا بها قبل السماع. وقد حكى القرآن هذا التأثير النفساني فقال: ((الله نزل أحسن الحديث متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد))⁽⁴²⁾.

فهذه الصلة الوثيقة بين النصوص القرآنية والنفوس الإنسانية يمتد أثرها إلى قضية القرآن الكبرى ألا وهي الإعجاز، ويؤيد هذا التأثير علم النفس فيقول: ((إذا استثار شيء ما شوق إنسان واهتمامه فإنَّ هذا الشوق لا يلبث حتى يفيض على النفوس قوة تحركها إلى العمل، وإذا اشتد الميل وأصبح تحمساً قصد المرء الجزء الأكبر من وقته وفكره على العناية بما تشوقه أو في الحصول عليه فتصبح حياته حافلة مليئة ذات قيمة ومعنى))⁽⁴³⁾.

فالقرآن الكريم في تحدّثه للنفس الإنسانية يبعث فيها الحيوية ويعمل على تجديد حياتها بين والحين حتى أنّه ليتمكنها أن تستقبل في كل يوم ميلاداً جديداً قال تعالى: ((وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً))⁽⁴⁴⁾، كل هذا يشير إلى مدى الحاجة إلى تفسير نفسي للقرآن الكريم وقد أيد هذه الحاجة بقوة بالغة الأستاذ أمين الخولي، فبعد أن تكلم عن جوانب الحياة الوجدانية قرر أنّ اللوحة النفسية في المعنى القرآني أحسم لخلاف بعيد الغور كثير الشعب بين المفسرين ثم ضرب لنا مثلاً لآية قرآنية اختلف في معناها المفسرون فقال: ((وشاهد ذلك غير قليلة أضع بين يدي القارئ بعضها فمن ذلك ما في تفسير الآيات 193 — 195 من الشعراء وهي (نزل به الروح الأمين* على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين*)).

فقد ثار حول هذه الآيات خلاف مس الأصول البعيدة والأسس الغائرة من البناء القرآني فهذا فريق يحتج بها على نزول القرآن بالمعنى لا باللفظ وأنّ اللفظ من عند الرسول عليه الصلاة والسلام، إذ لا ينزل على القلب إلّا المعاني، وهذه منزلة إلى إنكار أن يكون لفظ القرآن معجزاً ومنكر هذا النزول المعنوي يضطر إلى تناول النزول على القلب ليبين أنّ معدن العقل هو القلب أو الدماغ وهو ما يعرض له الفخر الرازي في تفسيره ويورد في ذلك آراء القدماء المحدثين والاستدلال لكل رأي وهي مسائل شائكة مظلمة لم يقل البحث العلمي كلمته الأخيرة فيها حتى يكون الترجيح لجانب من ذلك مأموناً مستقراً، لكن الفخر الرازي مضطر إلى أن يُرجّح فيؤثر أنّه القلب ليبين كيف يكون النزول على القلب مع أنّ النزول باللفظ لا بالمعنى فقط⁽⁴⁵⁾.

كما يسلك غير الفخر مسالك ملتوية إلّا أنّ الزمخشري يدركه التوفيق فيفطن من ذلك إلى خاتمة نفسية دقيقة يكشف بها قوام الموقف ويهون المعضلة إذ يعلق قوله تعالى: ((بلسان عربي مبين)) بالفعل نزل ويجعل المعنى هكذا: نزل به الروح الأمين على قلبك بلسان عربي مبين لتكون من المنذرين ثم يبين كيف يكون النزول على القلب بلسان عربي مبين فيقول⁽⁴⁶⁾: ((ولو كان أعجمياً لكان نازلاً على سمعك دون قلبك لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها ولا تعيها وقد يكون الرجل عارفاً بعدة لغات فإذا كُلم بلغته التي لقنها أولاً ونشأ عليها وتطبع بها لم يكن قلبه إلّا مصغياً إلى معاني الكلام يتلقاها بقلبه، ولا يكاد يفطن للألفاظ كيف جرت، وإن كُلم بغير تلك اللغة وإن كان ماهراً بمعرفتها كان نظره أولاً في ألفاظها ثم في معانيها فهذا تقرير نزل على قلبه لنزوله بلسان عربي مبين، وبذلك المنهج النفسي في فهم حال المتكلم بلغته الأم وحال المتكلم بغيرها كشف الزمخشري ظلمة الموقف وهون الأمر حتى عند من لا يرى أنّه حلّ المسألة حلاً نهائياً، وبهذا جعل الاحتجاج بالآية على النزول بالمعنى دون اللفظ يبدو واهناً))⁽⁴⁷⁾.

فالإعجاز بالمعاني النفسية يحوج إلى تناول القرآن بتفسير نفسي يقوم على الإحاطة المستطاعة بما عرف العلم من أسرار حركات النفس البشرية في الميادين التي تناولتها دعوة القرآن الدينية وجدله الاعتقادي ورياضته للوجدانات والقلوب⁽⁴⁸⁾.

وكانَّ شريعة الله في القرآن كانت على ميعاد لتغيير النفوس والاستيلاء على المشاعر بهذا الإعجاز النفسي ولهذا لم يكن للأوائل من العرب المسلمين همَّ سوى هذا الدين ونشر تعاليمه وما كان هذا إلا بسبب الإعجاز النفسي للقرآن الكريم ولهذا نجد الأستاذين أمين الخولي⁽⁴⁹⁾ وعبد الوهاب حمودة يذهبان إلى أنَّ الإعجاز النفسي من أهم وجوه الإعجاز وفي هذا يقول الأستاذ عبد الوهاب حمودة ما يأتي: ((إنَّ هذا القرآن معجز من نواحي كثيرة وجوانب متفرقة من أهمها الجانب النفسي فهو من حيث كونه كتاب هدى وبيان لا يدار الأمر فيه إلا على سياسة النفوس ومخاطبة القلوب ومناجاة الروح فالنظر الصائب إليه والفهم الصحيح له أو بعبارة أكثر صراحة تفسيره — أي القرآن — لا يقوم إلا على إدراك ما استخدمه من ظواهر نفسية ونواميس روحية أدار عليها بيانه مستدلاً وهادياً ومقنعاً ومجادلاً ومثيراً ومهدداً... فالقرآن الكريم قد راعى قواعد نفسية من مظاهر الاعتقاد ومسارب الانفعال ونواحي التأثير وأثار من هذا ما أيد به حجته وأظهر دعوته وهو في ذلك يسائر من شؤون النفس الإنسانية ويتغلغل في شعابها وجوانبها ممَّا لم يهتدِ إليه العلم إلا حديثاً))⁽⁵⁰⁾.

يتضح من هذا أنَّ الإعجاز النفسي للقرآن كان له أكبر الأثر في هداية النفوس الحائرة إلى الإيمان والعقول الضالة إلى سواء السبيل كما ألان كثيراً من القلوب الجاحدة التي لا تلين إلى ذكر الله.

المبحث الثالث

صور تفسيرية من الاتجاه الأدبي

لقد أفاد الأستاذ أمين الخولي كثيراً من تلاميذه الذين كان من أبرزهم: سيدة قطب، وعائشة عبدالرحمن بنت الشاطئ، ممَّا دعا إليه من تجديد عملية التفسير في الأسلوب والعرض والفكرة وجمال التعبير القرآني وأثره على النفس ببيان أدائه في التصوير الفني الدقيق، المؤدي إلى قوة الأداء والبعد عن العمق الفلسفي والخلاف الفقهي مع نفاذ البصيرة بوضوح الرؤية.

ولا بأس من ذكر نموذج واحد من التفسير الأدبي لكل منهم:

النموذج الأول: تفسير سورة العاديات

يقول تعالى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: ((وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (1) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (2) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (3) فَأَنْزَلَ بِهِ نَفْعًا (4) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (5) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (6) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكْ لَشَهِيدٌ (7) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (8) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (9) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (10) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (11))).

يقول سيد قطب: ((يجري سياق هذه السورة في لمسات سريعة عنيفة مثيرة، ينتقل من إحداها إلى الأخرى قفزاً وركضاً ووثباً، في خفة وسرعة وانطلاق، حتى ينتهي إلى آخر فقرة فيها فيستقر عندها اللفظ والظل والموضوع والايقاع! كما يصل الراكض إلى نهاية المطاف!)).

وتبدأ بمشهد الخيل العادية الضابحة، القادحة للشرر بحوافرها، المغيرة مع الصباح، المثيرة للنقع وهو الغبار، الداخلة في وسط العدو فجأة تأخذه على غرة، وتثير في صفوفه الذعر والفرار! يليه مشهد في النفس من الكنود والجحود والاثرة والشح الشديد! ثم يعقبه مشهد لبعثرة القبور وتحصيل ما في الصدور! وفي الختام ينتهي النقع المثار، وينتهي الكنود والشح، وتنتهي البعثرة والجمع .. إلى نهايتها جميعاً. إلى الله. فتستقر هناك: ((إنَّ ربهم بهم يومئذ لخبير))...

والإيقاع الموسيقي فيه خشونة ودمدمة وفرقة، تناسب الجو الصاخب المعفر الذي كذلك، تثيره الخيل العادية في جريها، الصاخبة بأصواتها، القادحة بحوافرها، المغيرة فجأة مع الصباح، المثيرة للنقع والغبار، الداخلة في وسط العدو على غير انتظار... فكان الإطار من الصورة والصورة من الإطار⁽⁵¹⁾.

بعد هذا التمهيد ينتقل سيد قطب لتفسير السورة بالتفصيل، فيقول: ((يقسم الله سبحانه بخيل المعركة، ويصف حركاتها واحدة واحدة منذ أن تبدأ عدوها وجريها ضابحة بأصواتها المعروفة حين تجري، قارعة للصخر بحوافرها حتى توري الشرر منها، مغيرة في الصباح الباكر لمفاجأة العدو، مثيرة للنقع والغبار. غبار المعركة على غير انتظار. وهي تتوسط صفوف الأعداء على غرة فتوقع بينهم الفوضى والاضطراب! إنَّها خطوات المعركة على ما يألفه المخاطبون بالقرآن أول مرة... والقسم بالخيال في هذا الاطار فيه إحياء قوي بحب هذه الحركة والنشاط لها، بعد الشعور بقيمتها في ميزان الله والتفاتة سبحانه إليها؟.

وذلك فوق تناسق المشهد مع الشاهد المقسم عليها والمعقب بها كما أسلفنا. أمَّا الذي يقسم الله سبحانه عليه، فهو حقيقة في نفس الإنسان، حين يخوى قلبه من دوافع الإيمان. حقيقة ينبهه القرآن إليها، ليجند إرادته لكفاحها، مذ كان الله يعلم عمق وشائجها في نفسه، وثقل وقعها في كيانه.

((إنَّ الانسان لربه لكنود . وإنَّه على ذلك لشهيد . وإنَّه لحب الخير لشديد))..

إنَّ الإنسان ليجحد نعمة ربه، وينكر جزيل فضله. ويتمثل كنوده وجحوده في مظاهر شتى تبدو منه أفعالاً وأقوالاً، فتقوم عليه مقام الشاهد الذي يقرر هذه الحقيقة. وكأنَّه يشهد على نفسه بها. أو لعلَّه يشهد على نفسه يوم القيامة بالكنود والجحود: ((وإنَّه على ذلك لشهيد)). يوم ينطق بالحق على نفسه حيث لا جدال ولا محال!.

((وإنَّه لحب الخير لشديد)) فهو شديد الحب لنفسه، ومن ثم يحب الخير. ولكن كما يتمثله مالا وسلطة ومتاعاً بأعراض الحياة الدنيا..

هذه فطرته. وهذا طبعه. ما لم يخالط الإيمان قلبه. فيغير من تصورات وقيمه وموازينه واهتماماته. ويحيل كنوده وجحوده اعترافاً بفضل الله وشكراناً. كما يبدل أثرته وشحه ايثاراً ورحمة. ويريه القيم الحقيقية التي تستحق الحرص والتنافس والكد والكدح . وهي قيم أعلى من المال والسلطة والمتاع الحيواني بأعراض الحياة الدنيا..

إنَّ الانسان - بغير ايمان - حقير صغير. حقير المطامع، صغير الاهتمامات، ومهما كبرت أطماعه، واشتد طموحه، وتعالَت أهدافه، فإنَّه يظل مرتكساً في حمأة الأرض، مقيداً بحدود العمر، سجيناً في سجن الذات.. لا يطلقه ولا يرفعه إلَّا الاتصال بعالم أكبر من الأرض، وأبعد من الحياة الدنيا، وأعظم من الذات.. عالم يصدر عن الله الأزلي، ويعود إلى الله الأبدي، وتتصل فيه الدنيا بالأخرة إلى غير انتهاء... ومن ثم تجيء اللفتة الأخيرة في السورة لعلاج الكنود والجحود والأثرة والشح، لتحطيم قيد النفس وإطلاقها منه. مع عرض مشهد البعث والحشر في صورة تنسي حب الخير، وتوقظ من غفلة البطر: ((أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور، وحصل ما في الصدور؟)).

وهو مشهد عنيف مثير. بعثرة لما في القبور. بعثرة بهذا اللفظ العنيف القاسي.. فالجو كله عنف وشدة و تعفير! أفلا يعلم إذا كان هذا؟ ولا يذكر ماذا يعلم؟ لأنَّ علمه بهذا وحده يكفي لهز المشاعر. ثم ليدع النفس تبحث عن الجواب، وتروّد كل مراد، وتتصور كل ما يمكن أن يصاحب هذه الحركات العنيفة من اثار وعواقب! ويختتم هذه الحركات الثائرة باستقرار ينتهي إليه كل شيء، وكل أمر، وكل مصير: ((إنَّ ربهم بهم يومئذ لخبير)) فالمرجع إلى ربهم. وإنَّه لخبير بهم (يومئذ)، وبأحوالهم وأسرارهم.. والله خبير بهم في كل وقت وفي كل حال. ولكن لهذه الخبرة (يومئذ) آثار هي التي تثير انتباههم لها في هذا المقام... إنَّها خبرة وراءها عاقبة. خبرة وراءها حساب وجزاء. وهذا المعنى الضمني هو الذي يلوح به في هذا المقام! إنَّ السورة مشوار واحد لاهث صاحب ثائر.. حتى ينتهي إلى هذا القرار.. معنى ولفظاً وإيقاعاً، على طريقة القرآن!))⁽⁵²⁾.

النموذج الثاني: في تفسير آيات من سورة الضحى:

ذكرت الدكتورة بنت الشاطئ (عائشة عبد الرحمن) في بداية تفسيرها لسورة الضحى بأنَّ ((السورة مكية بلا خلاف نزلت بعد الفجر والمفسرون مجمعون على أنَّ سبب النزول هو إبطاء الوحي مرة على الرسول صلى الله عليه واله وسلم وهو بمكة حتى شقَّ ذلك عليه، وقيل فيما قيل: ودع محمداً ربُّه وقلاه، ثم تناقضت أقوالهم - بعد هذا الاجماع - فيمن قالها.... وتستهل السورة بالقسم بالواو، والرأي السائد عند الأقدمين أنَّ هذا القسم القرآني يحمل معنى التعظيم للمقسم به، قال ابن قيم الجوزية: ((واقسامه تعالى ببعض مخلوقاته، دليل على أنَّها من عظيم آياته))، وسادت هذه الفكرة فألجأهم إلى اعتساف في بيان وجه التعظيم في كل ما أقسم به القرآن الكريم بالواو. ففي القسم بالليل مثلاً قد يبدو وجه الاعظام إذا لحظوا فيه الحكمة الإلهية من خلق الليل وجعله لباساً وسكناً، ولكنهم لحظوا فيه كذلك في آية الضحى معنى الاستيحاش، وأنَّه وقت الغم، وربما تألولوه بسكون الموت وظلمة القبور والغربة ممَّا لا يظهر فيه معنى الاعظام إلَّا عن تكلف وقسر وتحميل النص ما يأبى أن يحمله... إلى أن قالت: ((وهذا ما نظمئن إليه بعد طول تدبر وتأمّل في السور المستهلة بهذه الواو، هو أنَّ الواو خرجت فيها عن أصل معناها اللغوي في القسم للتعظيم إلى معنى نياي على نحو ما تخرج أساليب الأمر والنهي والاستفهام عن أصل معناها الذي وضعت له ملحظ بلاغي، فالواو في هذا الأسلوب تلفت لفتاً

قوياً إلى حسيات مدركة ليست موضح غرابة أو جدال. وتوطئة ايضاحية لبيان معنويات وغيبيات لا تدرك بالحس...المقسم به في آيتي الضحى، صورة سادية وواقع حسي. يشهد به الناس تألق الضوء في ضحوة النهار ثم يشهدون من بعده فتور الليل إذا سجي وسكن، يشهدون الحاليين معاً في اليوم الواحد، دون أن يختل نظام الكون أو يكون في توارد الحاليين عليه ما يبعث على انكار بل دون أن يخطر على بال أحد. أن السماء قد تخلت عن الأرض وأسلمتها إلى الظلمة والوحشة بعد تألق الضوء في ضحى النهار فأى عجب أن يجيء بعد أنس الوحي وتجلي نوره على المصطفى صلى الله عليه وسلم فترة سكون يفتر فيها الوحي. على نحو ما نشهد من الليل الساجي يوافي بعد الضحى المتألق، هذا هو ما نطمئن إليه في التفسير البياني للمقسم بالضحى والليل إذا سجي ولا أعرف - فيما قرأت - أحداً من المفسرين ألفت إلى هذا الملحظ التفاتاً واضحاً متميزاً وإن يكن بعضهم قد استشرف له من بعيد لكن وسط حشد من تأويلات شتى لا تخلو من تكلف وإغراب ((53).

النموذج الثالث: في الانفاق:

قال تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ)) (سورة البقرة: ٢٥٤).

كتب الأستاذ الأديب أمين الخولي في تفسير هذه الآية تحت عنوان (الاصلاح الجاد ... اخذ) فقال: ((إننا إلى ما في القرآن من توجيه اجتماعي نفسي فجعلنا نلتمس أصول هديه في مشكلات الاجتماع ومشكلة المال في الحياة، وحظوظ الناس منه هي كبرى تلك المشكلات أو في طليعة كبريائها، وقد سمعنا من هدي القرآن ومبادئه في حل تلك المشكلة ما سمعنا من أن مال الأغنياء مال الله. يمسكونه على ملكه وأن الفاقدين حقاً معلوماً في هذا المال. ثم جعلنا نلتمس اللمحات الفنية في نظم هذا الهدي الحكيم حول هذه الأسس الكبرى فرأيناه يروض الأغنياء دائماً على الانفاق ممّا في أيديهم ممّا آتاهم الله وممّا رزقهم الله انفاق المستخلف فيه الوكيل عنه كأنما ينفق من مال غيره.

ثم رأينا يحدث عن أداء هؤلاء الواجدين لما في أموالهم من حقوق فيعبر عن هذا الأداء بأنه ايتاء، أي: اعطاء في قصد مستقيم إلى ذلك الأداء مع سهولة ويسر ويبين لهم أن روح هذا الأداء، المحققة لفائدته والاصلاح به هي أن يؤتوه في إقدام فعّالٍ راضٍ مقبلٍ مرتاحٍ.

وبهذه المرامي الاجتماعية التي يومئ إليها صوغ التعبير القرآني مع الذي وجّه إليه من أصول وأسس يكون للذين ما يرجي منه، من الأمر في إصلاح الحياتين وتحقيق السلام النفسي للفرد والأمة في هذه الدنيا وتهيئة لدار السلام للمؤمنين المؤدين لهذه الواجبات في الحياة الآخرة.

والآن نريد أن نتابع تقسيم هذه الأقسام العاطرة، من جو القرآن الروحي في لطف نسجه، وإبداع صوغه فنحس لألفاظه ايحاءها، وندرك وقعها على الأنفس الحساسة ونلمح ما ترنو إليه من لفتات مثيرة تبدو للقلوب الحية صوراً واضحة الملامح بينة القسمات وكذلك نطمئن دائماً إلى أن هذا القرآن يعطي ذلكم التدبير العملي والتنسيق الاجتماعي بما هو بيان وكتاب مبين، ويمنح معه التوجيه القلبي والاتجاه الروحي بما هو نور

وهدى ورحمة للمؤمنين، وما أشدَّ حاجة الناس إلى ما ينير عقولهم لتقبل الفكر، ويطمئن نفوسهم مع ذلك للامتثال حين يلقي إليهم بالأمر وذلك هو ما نظفر به خاصة، في اللفت الغني للقرآن، والاتجاه الروحي منه ففي أضوائه وأنواره مواضع للقوة والجمال في التنسيق الاجتماعي يجعل من يوجه إليه يتقبله راضياً ويُقبل عليه واثقاً ويمارسه مطمئناً، هذا القرآن يتحدث إلى المديرين لشئون الجماعة في المال، كما تحدث إلى المعطلين للجماعة حقها في هذا المال فإذا هو يقول: ((خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها، وصل عليهم إنَّ صلاتك سكن لهم والله سميع عليم، ألم يعلموا أنَّ الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأنَّ الله هو التواب الرحيم)).

وتصيح لأقوال المفسرين السابقين أنفسهم فإذا فيها معانٍ صالحة خليقة بالانتباه والتدبر فهم يقولون مثلاً: ((إنَّ الصدقة المأمور بأخذها هنا من أولئك القوم هي: غير الزكاة المفروضة.

إنَّ الرسول قد أخذ ثلث أموال هؤلاء، الناس المتحدث عنهم⁽⁵⁴⁾. من المعترفين بذنوبهم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً وليس هذا من الزكاة المفروضة في شيء.

وهذا القول التفات إلى سعة الحق في أحوال الواجدين ووفائه بحاجة المجتمع ومِمَّا يقول هؤلاء المفسرين القدامى أيضاً في معنى الصدقة أنَّها من الصدق إذ هي دليل على صحة إيمان المؤتي، وصدق باطنه مع ظاهره وأنَّه ليس من المنافقين الذين يلزمون المطوعين من المؤمنين في الصدقات، وهو تفسير يتفق مع الحس الراقي والادراك الاجتماعي السليم بأنَّهم دائماً يأخذونها على أنَّها حقُّ الله لا على أنَّها تفضل ومنحة وعطية من الواجدين، ومن يد عليها ليد سفلَى ونلمس هذا المعنى واضحاً بيناً فيما نسمعه من آثار يوردونها في هذا الموضع كقولهم: إنَّ الصدقة تقع في كف الرحمن قبل أن تقع في كفِّ السائل وما من عبد تصدق بصدقة إلا وقعت في يد الله فيكون هو الذي يضعها في يد السائل.

وأيُّ غضاضة فيما يتلقاه كف الرحمن. وأي بأس على الأخذ في تلقي مال الله من كف المعطي الجواد الوهاب الرزاق مالك الملك ذي الجلال والاکرام.

تلك وما إليها معانٍ اجتماعية تقرر الحق لأهله، وتحمي عزة الإسلام وكرامة الأدمية التي كرمها الله وفضلها على كثير ممَّن خلق تفضيلاً.

وما هذه المرامي الاجتماعية إلا لمحات يومئ إليها، ويدل عليها صوغ العبارة ويشير إليها النظم تلك الإشارات المنبهة للقلوب الخافقة والوجدانات المحسنة وهي - كما تجد - بعض اتجاه هاتين الآيتين الكريمتين بل طرف اشعاع وامنض لمفردات ألفاظها.

وإنَّ المتدبرين هذا الكتاب الكريم ليلميسون ما وراء هذا من لفت النظم القرآني، ويستبينون الحس اللغوي لكلمة ويستشعرون وقع لفظ تكرر في الآيتين وهو الأخذ في قوله: خذ من أموالهم، وقوله: ويأخذ الصدقات،

إذ أمر المدبر لشؤون هذه الجماعة وهو الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في حينه ثم أصحاب ذلك في الأمة بعده فهو خطاب خصَّ به النبي لفظاً وشركه في جميع الأمة معنى وفعلاً.

ووصف الله تعالى بأنَّه هو الذي يأخذ الصدقات، وهذا وما إليه من صنيع القرآن لا يجيء عفواً ولا يكون اتفاقاً، بل هو روح المعنى ونفعة من سر الصياغة يلتمسه الشاعرون بروعة الفن القولي في القرآن، وذلك أنَّهم يجدون الأخذ في اللغة هو حوز الشيء وتحصيله حوزاً قوياً جاداً، لا تهاون فيه، ويجدون القرآن يستحمل لفظ الأخذ هذا في مواطن الحوز الجاد فهو يستعمله في الميثاق لأنَّه موثق ورباط فيقول: ((إِنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا)) ويقول: ((وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ)) ويقول: ((وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ)).

وهو يستعمله في مواطن القهر والعنف فيقول: ((فَأَخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةَ)) فأخذتهم الصيحة ... والرجفة، ويقول: فأخذهم أخذة رابية. وهو يستعمله مع التحصيل القوي فيقول: ((خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ)) ويقول: ((فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ)) ويقول: ((خُذْهَا وَلَا تَخَفْ)).

ومن كل أولئك نشعر في مادة الأخذ بأنَّها تناول الجاد الحازم القوي، تحسه واضحاً في قوله: ((وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ .. وَلِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ..أَخَذَ بِالنَّوَاصِ وَالْأَقْدَامِ)). فنستشف هذا الخبر المتناول من مثل قوله: خذ العفو، وأمر بالعرف، وقوله هنا: ((خذ من أموالهم صدقة)) كما ندرك إثارته وصدى فعل الله المؤكد الصدقات بقوله: ((إِنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ)).

وقد رأينا قبل ذلك حين يأمر الواجدين بالإعطاء أو يصف عملهم في إعطاء المال يؤثر ذلك لفظاً ((الايطاء)) لأنَّه على ما سبق إعطاء قاصد فاعل سهل ميسر، وأما المتقبلون لمتلقون، المحصلون فيؤثر في عملهم لفظ الأخذ الذي هو تناول جاد قوي حازم، وتلك هي لمحات الفن القرآني تحت حقائق الأوامر ولباب الأفعال وهي روحها وموضع التعبد منها، ومعقد الفاتح لها وعندها ينبغي أن يقف المتدبرون لهذا الذكر الحكيم لأنَّه جدير بمعنى التدبر والتعقل، إنَّما يريد القرآن حين يصنع ما نتعرف من حلول مشكلة المال في الاجتماع أن يؤتي المؤدودون لحق الله الذي هو حق الجماعة في المال ايتاء، وأن يأخذ المدبرون لهذه الحقوق أخذاً، لأن طبيعة هذا الجانب من الحياة على مثل هذا الحس الشاف والفعل الحازم، ولأنَّ الحاجة فيه ناجزة، لا تحتل التأخير، عاجلة لا تطيق الإبطاء، ملحة لا تحتل التسويق. لأنَّها حاجات ضرورية متجددة نامية دائمة قاهرة يفسد التدبير لها بالتهاون وحين تتوانى أو تتأخر وتمهل تفقد أثرها، وتضرب بذلك قسوة الحاجة فيضطرب الأمر، ويضيع كثير ما يبذله بعد فوات الأوان ايتائه، وقد كان في حينه أدفع للحاجة وأرضى للنفس والنفع للجماعة والفرد جميعاً.

فيا قوم: هذا مجتمعكم تكاثر ما فيه من موضع الحاجة إلى الإصلاح الجاد، فهو بلغتكم هذا الإيماء وينبهكم هذا للتذكير ويحثكم هذا الهدى، فيؤتي المؤتون حق الجماعة باسم الله، ويأخذ المدبرون في حد ما يسد هذه الحاجة يضعونه في موضعه ويعرفونه في مصرفه، مهتدين بالهدي العلوي الحكيم الذي كرم الأدمية وقرر الحق ووجه للحل، ورشد للتدبير وقرر الأخذ بما دفع إلى التفكير وأمر بالنظر وحتى على الاعتبار وحذر

العقبى، قوله تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ۚ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ)) (البقرة: ٢٥٤)⁽⁵⁵⁾.

النتائج

أما النتائج التي توصل إليها البحث فيمكن ذكرها على النحو الآتي:

- 1- ظهر لنا من البحث أنَّ التفسير الأدبي هو معالجة النصوص القرآنية معالجة تقوم أولاً وقبل كل شيء على إظهار مواضع الدقة في التعبير القرآني ثم بعد ذلك تصاغ المعاني التي يهدف القرآن إليها في أسلوب شيق أخاذ.
- 2- إنَّ هذا اللون الأدبي الاجتماعي يُعدُّ عملاً جديداً في التفسير وابتكار يرجع الفضله إلى مفسري هذا العصر الحديث وبالتحديد إلى مدرسة الأستاذ أمين الخولي.
- 3- كشفت مدرسة التفسير الأدبي عن بلاغة علوم القرآن وإعجازه وأوضحت معانيه ومرامييه وأظهرت ما فيه من سنن الكون الأعظم. ووقفت بين القرآن وما أثبتته العلم من نظريات صحيحة وجلت للناس أن القرآن هو كتاب الله الخالد الذي يستطيع أن يساير التطور الزمني والبشري.
- 4- دفعت مدرسة التفسير الأدبي ما ورد من شبه على القرآن وفندت ما أثير حوله من شكوك وأوهام كل هذا بأسلوب شيق جذاب يستهوي القارئ ويستولي على قلبه ويحبب إليه النَّظر في كتاب الله ويرغبه في الوقوف عند معانيه وأسراره ولم تشوه التفسير بالإسرائيليات والروايات الخرافية المكذوبة، ولم تتطرق إلى الأحاديث الضعيفة والموضوعة.
- 5- والتفسير الأدبي عند أمين الخولي إما أن يكون دراسة حول القرآن، أو دراسة القرآن نفسه، فالدراسة التي حول القرآن تركز على دراسة البيئة المادية والمعنوية التي ظهر فيها القرآن وعاش، وأما الشق الثاني من التفسير الأدبي وهي دراسة القرآن نفسه فهي تبدأ بالنظر في المفردات، والمتأدب يجب أن يقدر عند ذلك تدرج الألفاظ، وتأثيرها في هذا التدرج يتفاوت بين الأجيال، وبفعل الظواهر النفسية والاجتماعية، وعوامل حضارة الأمة، وما إلى ذلك مما تعرضت معه ألفاظ العربية في تلك الحركات الجياشة المتوثبة التي نمت بها الدولة الإسلامية.

المصادر والمراجع

- 1- اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر: د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، ط3، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- 2- الاتجاهات الحديثة في تفسير القرآن الكريم: حسين درويش حنتوش، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإسلامية.
- 3- أثر القرآن في تطور النقد الأدبي: للدكتور محمد سلام زغلول، دار المعارف، بمصر.
- 4- إعجاز القرآن: لأبي بكر محمد بن الطيب للباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر.
- 5- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، 1389هـ.
- 6- بيان إعجاز القرآن: للخطابي، مطبوع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، دار المعارف، بمصر.
- 7- تاريخ الأدب العربي: لأحمد حسن الزيات، ط2، دار المعارف، بالقاهرة.

- 8- التفسير البياني للقرآن الكريم: الدكتورة عائشة عبدالرحمن بنت الشاطئ، دار المعارف بمصر.
- 9- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي (ت604هـ)، قدم له: هاني الحاج، حققه وعلق عليه وخرّج أحاديثه: عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، القاهرة- مصر، د.ت.
- 10- التفسير معالم حياته منهجه اليوم: أمين الخولي، طبعة دار الكتاب اللبناني.
- 11- التفسير ورجاله: للشيخ محمد الفاضل بن عاشور، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، السنة الثانية، 1970م.
- 12- الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت671هـ)، تحقيق: د. محمد إبراهيم الحفناوي، د. محمد حامد عثمان، دار الحديث، القاهرة- مصر، 1423هـ/ 2002م.
- 13- خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم: الدكتور محمد رجب البيومي، مجمع البحوث الإسلامية، السنة الثالثة، 1391هـ.
- 14- دلائل الإعجاز: لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت471هـ)، قرأه وعلق عليه: أبو فهر محمود محمد شاكر، ط3، مطبعة المدني، بجدة، 1413هـ/ 1992م.
- 15- رسالة التوحيد: للشيخ محمد عبده، ط10، دار المنار، القاهرة - مصر.
- 16- رسالة النكت في إعجاز القرآن: للرماني، مطبوع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، دار المعارف، بمصر.
- 17- الصناعتين: لأبي هلال العسكري، طبع الاستانة سنة 1319هـ.
- 18- في ظلال القرآن: لسيد قطب، دار الشروق، القاهرة - مصر.
- 19- القرآن وعلم النفس: لعبد الوهاب حمودة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي المصرية، ودار القلم، 1962م.
- 20- الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: للإمام محمود بن عمر الزمخشري (ت538هـ)، رتبه وضبطه وصححه: مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان.
- 21- مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب: أمين الخولي، ط3، دار المعارف، مصر، 1963م.
- 22- منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه: مصطفى الصاوي، دار المعارف، بمصر.
- 23- من هدي القرآن في أموالهم: لأمين الخولي، دار الهنا، القاهرة - مصر، 1944م.
- 24- النبأ العظيم: للدكتور محمد عبدالله دراز، طبع مطبعة السعادة بالقاهرة، 1389 هـ - 1969 م.
- 25- نظرات في تفسير القرآن: للشيخ محمد الغزالي، ط1، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة - مصر، 1958م.

الهوامش

- (1) مناهج التجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب: 303.
- (2) ينظر: المصدر نفسه: 304.
- (3) ينظر: الاتجاهات الحديثة في تفسير القرآن الكريم: 118.
- (4) مناهج التجديد: 323.
- (5) الصناعتين: لأبي هلال العسكري: 3.
- (6) ينظر: خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم: 227.
- (7) التفسير ورجاله: 58.
- (8) مناهج التجديد: 306.
- (9) ينظر: مناهج التجديد: 307 - 315.



- (10) المصدر نفسه: 315.
- (11) التفسير البياني للقرآن الكريم: 14.
- (12) ينظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر: 2/885-900.
- (13) التفسير معالم حياته منهجه اليوم: 35-36.
- (14) التفسير معالم حياته منهجه اليوم: 36-37.
- (15) المصدر نفسه: 37.
- (16) المصدر نفسه : 38-39.
- (17) المصدر نفسه: 38-39.
- (18) سورة الزمر من الآية 28.
- (19) التفسير معالم حياته منهجه اليوم: 41-42.
- (20) المصدر نفسه: 43-44.
- (21) التفسير معالم حياته منهجه اليوم: 44.
- (22) ينظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر: 2/898-899.
- (23) بيان إعجاز القرآن: للخطابي: 23-24.
- (24) رسالة النكت في إعجاز القرآن: للرماني: 69.
- (25) إعجاز القرآن: 52.
- (26) دلائل الإعجاز: 35-36.
- (27) منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه: 218.
- (28) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: 238.
- (29) بيان إعجاز القرآن للخطابي: 64.
- (30) مناهج التجديد: 205 وما بعدها.
- (31) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: 232.
- (32) القرآن وعلم النفس: 77.
- (33) ينظر: أثر القرآن في تطور النقد الأدبي: 257.
- (34) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: 238.
- (35) المصدر نفسه: 240.
- (36) ينظر: رسالة التوحيد: 173.
- (37) ينظر: التصوير الفني ومشاهد يوم القيامة.
- (38) النبأ العظيم: 150.
- (39) تاريخ الأدب العربي: 88-89.
- (40) سورة الكهف: الآية 54.
- (41) ينظر: نظرات في تفسير القرآن: 121-122.



- (42) سورة الزمر: الآية 23.
- (43) القرآن وعلم النفس لعبد الوهاب حمودة: 17.
- (44) سورة طه: الآية 113.
- (45) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: 541/6 - 543.
- (46) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأفاويل في وجوه التأويل: 132/2.
- (47) مناهج التجديد: 211 - 213.
- (48) ينظر: المصدر نفسه: 211.
- (49) ينظر: المصدر نفسه: 203 - 213.
- (50) القرآن وعلم النفس: 77.
- (51) فصل التناسق الفني في كتاب التصوير الفني في القرآن "دار الشروق".
- (52) في ظلال القرآن: 3959.3957/6.
- (53) التفسير البياني للقرآن الكريم: 21-18/1.
- (54) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: 749/8.
- (55) من هدي القرآن في أموالهم: 248-244.